

رسوم الأطفال في زمن الحرب-مقاربة وإحصاءات



د. منى حسن دياب
رئيسة وحدة المناهج
المركز التربوي للبحوث والإنماء

إن موضوع دراسة الطفل في زمن الحرب هو من أدق المواضيع وأصعبها. لأن مفهوم الحرب عند الأطفال غامض رغم أنه مرتبط بيقظة الحاجات المعيشية عندهم. وهو عالم لا يمكن لإنسان راشد الولوج إليه وفهم أبعاده إلا إذا اتبع معايير تناسب ومفاهيم هؤلاء الأطفال، لردم الهوة بين عالمنا وعالمهم. يقول Antoine de Saint-Exupéry في مؤلفه "الأمير الصغير": "إن الراشدين لا يفهمون الجمال إلا من خلال الأرقام، فإذا قلت لهم بأني اشتريت منزلاً سقفه من القرميد، وتغطيه شجرة "الجماليا"^(١) بزهورها القرمزية، ويعيش فيه حمام "الستوتة"^(٢) فإن هذا الوصف لا يشدهم أبداً. أما إذا قلت لهم بأني اشتريت بيتاً بمئة ألف فرنك فرنسي فإنهم يقولون بدهشة يا له من بيت جميل... لذا قررت أن لا أسأل الراشدين رأيهم، وأن أحتفظ بمشاعري لنفسي"^(٣)

أهمية الدراسة

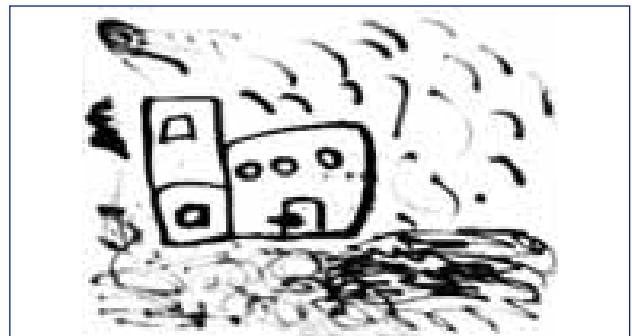
ومفاهيمهم، انعكس على طرائق تعبيرهم خلال عملية الإجراء، وتجلت بأنواع اللعب والرسوم التي أبدعوها في أماكن التجمع، والتي قدر لي أن أكون مشاركة لهم في المحنة التي جمعت في مكان واحد وزمن واحد، كل تناقضات الوطن واختلافاته المذهبية والدينية والطبقية والسياسية، واتفقت في آن واحد على البحث عن الأمن والاستقرار، وبنظرة الأم التي حزنت لفراق أولادها ومعظمهم من الأخوة والأهل والجيران، وبنظرة الباحث عن المعرفة والحقيقة التي نسعى إليها دوماً ومهما كانت العقبات. جمعت كل ما تيسر لي من هذه الرسوم، بعد أن قرنت كل رسمة بإجابات أسئلة تداعي الأفكار التي طرحتها على الأطفال للوقوف على طريقة تفكيرهم ولزيت من المعرفة المعمقة عنهم، وفي هذا الوضع الظرفي غير العادي المتواجدين فيه.

وعدت وصنفت هذه الرسوم وفقاً لمعايير تظهر مقاييس أثر الحرب على نفسية الأطفال، وأثرها على تعلقهم بأوطانهم، تبعاً لنقاط اتفق عليها مع "مؤسسة السلام الكوني" المنبثقة عن مؤسسة "تراخوس للبحوث والدراسات" وهي تشمل دراسة النقاط الآتية:

- صورة الوطن في رسوم الأطفال.
- زمن الحرب (الحاضر).
- كيفية رسم الأطفال للبيت؟ وأين؟
- رسم الأقرباء والمعارف
- كيفية رسم الطبيعة والانعكاسات النفسية التي تظهرها
- الألوان واستخداماتها في التعبير عن المشاعر: الخوف، عدم الاستقرار، الأمن...
- مفهوم الحرب والسلام عند الأطفال.

إنها دراسة تأسيسية وإنسانية شاملة عما يرتكبه الراشدون في حق الأطفال. الطفل يكتب رسومه ما يخجل عن قوله الراشدون. وهي دراسة فريدة لأنها مناسبة ظرفية لا تتكرر بذات المعايير، ولا في ذات المكان والزمان. إذ أنها دراسة فريدة بكل المقاييس العلمية المحتملة والافتراضية والمقنونة.

تخضع المفاهيم عند الطفل لمعايير معقدة لأنها متعلقة بأحاسيسه ومشاعره، لذا فإن كثيراً من علماء النفس حاولوا القيام بدراسات معمقة لنفسية الطفل وآليات سلوكه، والقليلين منهم استطاعوا أن يخرجوا من إطار رؤيتهم الخاصة للعالم، وأن يتخلصوا من اعتبار أن الطفل راشد صغير الحجم يمتلك مفاهيم كالراشدين وباختلاف كمّي فقط.



هكذا رسم الأطفال النزوح.

وبما أن عالم الطفولة لا يدرك العالم ومفاهيمه كما الراشدين، فالمفاهيم ليست جاهزة في عقله، وإنما تبني تدريجياً خلال فترة النمو، متأثرة بكل العوامل المحيطة بها. لذا فإن النقلة النوعية والتغيير المفاجيء والسريع للأطفال الذين رحلوا بواسطة عمليات الإجملاء^(٤) خلال حرب ١٢ تموز ٢٠٠٦، كان لها تأثير عميق على نفسيتهم

منهجية البحث

العينة العشوائية: تم جمع ٢٨٠ رسماً من رسوم الأطفال، شكلت الأرضية الأهم في البحث، ومنها انطلقت إلى مرحلة تعبير الطفل عما تعني له رسوماته. وقرنت كل رسمة بداعي الأفكار التي أنتجها الطفل وما عبّر عنه بكل تلقائية وعفوية، وقارنتها بأسئلة الاستمارة المرفقة.

استمارة لتفريغ معاني الرسوم: مهمتها تفريغ معاني الرسوم ومواضيعها. وذلك بدراسة كل رسمة على حدة، وتحليل المفاهيم الواردة في الرسم وكيفية التعاطي معها من قبل الطفل، وتحليل الألوان وكيفية تناسقها واستخداماتها في الرسوم، وتحليل المعاني النفسية ومقارنتها مع عملية تداعي الأفكار التي مرّ الطفل بتجربتها.

تفريغ الاستمارات واستخلاص النتائج، وإدراجها في جداول إحصائية واستخلاص نتائجها ونسبها المئوية، التي تظهر الفوارق بين ما هو موجود والحالة الطبيعية الواجب تواجدها عند الطفل، لمعرفة حجم النتائج وفي ضوءها توضع الحلول اللازمة. وأخيراً كتابة التقرير والتوصيات.

الهدف من البحث

الهدف هو الوصول إلى نتائج إحصائية استنتاجية لاستقراء واستخراج القوانين التي حكمت الأطفال في إنتاجهم لهذه الصور، وعلاقتها بظروف الحرب، ومدى تأثير هذه الظروف على نوعية تفكيرهم ووعيهم الواقع، والتغيرات النفسية والبنوية المستجدة عليهم من جرائها.

كما وتشير هذه الدراسة إلى المنطق الربطي بين الأحداث وبين حلم الأطفال المتمثل بفكرتهم عن البيت والوطن والأمن والسلام، والتناقض الحاصل بين هذه المفاهيم وضياح المنطق، واكتشاف هذا التناقض في نفسيتهم ومن ثم إسقاطه في رسوماتهم.

فالرابط المنطقي عند الطفل اختلط بالغموض والبحث عن البديل، ورغم التشتت في عملية التفكير المصاحبة للوضع القائم، فإن سمات التفاعل مع الحاضر طغت على الرسوم، وأظهرت بوضوح بأنها أداة التعبير الوحيدة التي يستطيع الطفل استخدامها بحرية. فكل الأطفال فنانون إلى أن يثبت العكس، والرسم هو المخرج الأمثل لما يختلج في نفوسهم. إن رسوم الأطفال هي الاختبار الذي يهدف إلى إظهار الرابط بين الواقع والمفهوم المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمكان والزمان والحدث.

تفريغ الاستمارة

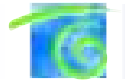
إعتمدت في تفريغ الاستمارة على تصنيف بياجيه^(٥) لمراحل الإدراك عند الطفل وهي مصنفة إلى ثلاث فئات:

المرحلة الأولى: تتضمن إجابات الأطفال الذين تقع أعمارهم بين ٥ و ٨ سنوات، وهؤلاء مازالوا في الطور الأول للإدراك (حيث يفتقر الطفل إلى التمييز بين الكثير من المفاهيم والأشياء.. اليمين واليسار، الحب والمالقة...)

أما المرحلة الثانية: بين ٨ و ١١ سنة حيث يبدأ الطفل بإدراك العلاقة بين معنيي الشرق والغرب واليمين واليسار، والفرق بين الأشياء واختلافاتها، فإن إجاباته تبقى مترددة ومضطربة نتيجة عدم انسجامه النفسي بين ما هو معنى مجرد الرمز^(٦)، وبين ما هو واقع في مجال تجربته الحياتية اليومية.

والمرحلة الثالثة: تلك التي تمتد من عمر ١١ سنة وما فوق، وهي تتميز بالثقة والثبات في الإجابات وتعبر عن بنية ذهنية تتحكم بها. واستخدمت معيار الثبات^(٧) في الإجابات المكونة من ثلاثة أبعاد: اللون والحجم والحاجة.

دلّت الدراسات على أن مسألة تكيف الطفل مع البيئة المحيطة به هو تكيف تدريجي وتلقائي، يتأقلم مع التغيرات الروتينية التي يتعايش معها يومياً. ودراستنا تطول اليوم التغيرات الجذرية والمفاجئة، التي لا تخضع لمعيار التكيف البيوي المتدرج. وبقراءة مفصّلة ودقيقة للنتائج الإحصائية لدراسة رسوم وصور الأطفال، نستطيع فهم ذهنية الطفل للزمن والثبات والتغيرات المفاجئة، وسببية العلاقات، ورفض الطفل للامنطقية التي يتعرض لها، فمفهوم الزمان والمكان وسببية العلاقات، مفاهيم مترابطة بذهنية الطفل، ووثيقة الصلة مع حاضره، وهي العامل الأوحد الذي يساعد الطفل على الخروج من آنيته، وتمركز تفكيره حول نفسه وذاتيته فقط (égocentrisme)، وانطلاقه في عملية الاندماج الاجتماعي (socialization)، والانتقال من الأنا إلى الأنا الأعلى والمحيط وهي التي تشكل عاملاً مهماً في عملية النمو النفسي، الذي سينعكس عليه وعلى نفسيته مدى الحياة. فالطفل أسير الحواس وإجاباته وليدة الحاضر المعيش وطاولت العينة ٢٨٠ رسماً لأطفال تراوحت أعمارهم بين ٥ و ١٤ سنة، وهي السنوات التي تتضمن أهم مراحل تكوين الإدراك عند الطفل. وجاءت هذه الرسوم نتيجة محاض الانتقال المتواصل الذي دام ستة أيام (فترة الانتقال من لبنان إلى كندا)، ورغم الاهتمام المتزايد من قبل الدول الجالية فإن الأطفال حملوا في ذاكرتهم آلام الانسلاخ عن كل مايربطهم بالواقع الأليم.



بعد أن تمت دراسة الرسوم وتفرغ محتوياتها ومدلولاتها النفسية نلاحظ ما يأتي:
 ١- إن سلم الأعمار للأطفال موضوع البحث يتراوح بين ٥ و ١٤ سنة.

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	٤٤	١٠١	١٣٥	٢٨٠
النسبة المئوية	١٥,٧	٣٦,٧	٤٨,٢	١٠٠%

٢- سلم تنوع الرسوم: طبيعة (لبنان)، طبيعة (كندا)، بيت، شخصيات...
 - الرسم وسيلة للتعبير عن الارتباط المكاني والإنساني.

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	٣٩	٥١	١٢٠	٢٨٠
النسبة المئوية	١٣,٩	١٧,٨	٤٢,٩	١٠٠%

٣- الرسم وسيلة للتعبير عن المشاعر لدى الأطفال: الحزن- الفرح.

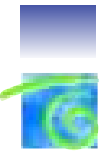
فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	حزن ٣٢ / فرح ١٢	حزن ٢٢ / فرح ٢٩	حزن ٥٩ / فرح ٧٦	٢٨٠
النسبة المئوية	٤,٣ / ١١,٤	١٠,٥ / ٢٥,٦	٢٧,١ / ٢١,٢	١٠٠%

٤- سلم القيم عند الأطفال لمفهوم الحرب والسلام:

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	س- ح- لا شيء / ٣ / ١٠	س- ح- لا / ٢ / ٣٠ / ٦٩	س- ح- لا / ١٣٥ / ٠	٢٨٠
النسبة المئوية	١٣,٥ / ٣,٥ / ٠	٢٦,٦ / ١١,٦ / ٢٤,٣	٤٨,٢ / ٠ / ٤٨,٢	١٠٠%

٥- مفهوم الموت عند الأطفال:

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	٢٥ نعم- لا	٨٥ نعم- لا	١٣٥ نعم	٢٨٠
النسبة المئوية	٦,٧ / ٨,٩	٥,٧ / ٣٠,٥	٤٨,٢	١٠٠%



٦- مفهوم التهجير وعدم الاستقرار:

كل الفئات العمرية بأعدادها كاملة استوعبت معنى التهجير وعدم الاستقرار وارتأت في بلد المهجر الخلاص.

٧- مدى إدراك الطفل لمفهوم الوطن:

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	يسدرك ٠ لا يدرك ٤٤	يسدرك ٣٠ لا يدرك ٧١	يسدرك ١٣٥ ويربط الوطن بالأمن	٢٨٠
النسبة المئوية	١٥,٧	يسدرك ١٠,٧ لا يدرك ٢٥,٤	٤٨,٢	%١٠٠

٨- مدى تكيف الطفل مع الواقع (الحرب):

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	تكيف ٠ رفض ٤٤	تكيف ٠ رفض ١٠١	تكيف ٠ رفض ١٣٥	٢٨٠
النسبة المئوية	١٥,٧	٣٦,١	٤٨,٢	%١٠٠

٩- درجة رفض الحرب:

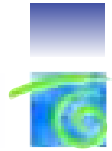
فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	يرفض ٤٤ لا يرفض ٠	يرفض ١٠١ لا يرفض ٠	يرفض ١٣٥ لا يرفض ٠	٢٨٠
النسبة المئوية	١٥,٧	٣٦,١	٤٨,٢	%١٠٠

١٠- مفهوم تعلق الطفل بالوطن:

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	لا جواب ٤٤	لا: ٩١ لا جواب: ١٠	لا: ١٠٠ نعم: ٣٥ (بشروط)	٢٨٠
النسبة المئوية	١٥,٧	٣٦,١	نعم: ١٢,٧ لا: ٣٥,٩	%١٠٠

١١- الحالة النفسية للطفل أثناء الإجلاء:

فئة العمر	٧-٥	١٠-٨	١٤-١١	المجموع
العدد	مستقر: ٣٠ غير	مستقر: ٧٤ غير	مستقر: ١٠٢ غير	٢٨٠
النسبة المئوية	١٠,٦/٥	٢٦/٩,٧	٣٦,٥/١٢	%١٠٠



١٢- كيفية استخدامه للألوان: هادف = نعم / غير هادف = لا:

فئة العمر	٧.٥	١٠.٨	١٤.١١	المجموع
العدد	٢٣ ٢١:٢	٥٥ ٤٦:٩	٩٠ ٤٥:٤٥	٢٨٠
النسبة المئوية	٧,٥/٨,٣	٥/١٩,٦ ١٦,	٣٢,١/١٦	١٠٠%

الأنسب لقياس العمليات النفسية المصاحبة للوضع الطارىء الذي عانى منه الأطفال في زمن الحرب هو العودة إلى التدايمات النفسية التلقائية والتعبير عنها بالرسم وهو الاختبار الطوعي الذي قام به الأطفال بعفوية وحرية، وهذا الاختبار أحاط بكل جوانب المستحدثات النفسية للطفل والتي حكت ألوانها وأشكالها ما يعجز الطفل عن التعبير عنه بالكتابة أو بالكلام، لذا كان لا بد من تحليل هذه الرسوم لمعرفة ما يريد الطفل قوله عن الحرب، لمعرفة مدى تأثير هذه الحرب على أجيال المستقبل، وكيفية تأثيرها على منطق الطفل ومفاهيمه، وتحليل هذه الرموز للوصول إلى المحتوى المعرفي للطفل وتقنياته الدفاعية النفسية والبديلة لبناء ثوابت بين الأشياء والعلاقات والعالم والسببيات، كل هذا في أجواء غير طبيعية بل وفجائية وتشكل حالة من الصدمة النفسية للطفل، لذا أرى أن يطلق على هذه المرحلة لزاماً اسم: "النمو الصدمي عند الأطفال" لأنه وإبان عملية النمو الفجائية هذه يستخدم الطفل وحدة الفكر في أبسط درجاته: الملاحظة والتجربة، الحس والحركة ومنها ينتقل إلى أرقى مراحل المقارنة بين الفكر الافتراضي (ما يجب أن يكون) = الاستقرار والسلام، و(واقع الحال) = الحرب وهذا ما يعبر عنه بياجيه "بالثبات" فهو يعتبر "... أن المعرفة تتكون عبر الحاجة الإنسانية الدائمة لبناء الثوابت في الأشياء والعلاقات والعالم، في مواجهة تغيرات محددة" (١٠).

ففي حالة الثبات ينقل الطفل معارفه بهدوء منهجي ويطورها عبر بعدين: زمني ومكاني (هنا والآن) معتمداً على تجربة وخبراته الماضية والحاضرة وموقعه الجغرافي والمعنوي. ويربط في عملية عقلية سريعة بين الزمان والمكان والسببية، ولكن عندما ينفلت الطفل من مقاييس الزمان والمكان والسببية ويجبر على التخلي عن تجربته (هنا والآن) يصل إلى نقطة عدم التوازن اللامركزية على الصعيد التفكير والتفكيكي، وتصبح الأحكام، عنده متحررة من كل المقاييس والأحكام إن على الصعيد الاجتماعي، وإن على الصعيد الذاتي ويفقد التوازن في عملية التفاعل الاجتماعي وينطلق عقله في

تشير هذه الاحصاءات إلى أن ٩,١٥ ٪ من الأولاد الذين تم إجلاؤهم عن الوطن الأم، هم بحاجة إلى إعادة تأهيل نفسي أكاديمي، نتيجة تأصل عادات الخوف في نفوسهم؛ فمعظمهم غير قادر على النوم، وغير مؤهل للتفكير في مفهوم الوطن، بل ورفض له نتيجة الصور المرعبة والأصوات الخيفة التي خلفتها الحرب، هذا بالإضافة إلى التغيير المفاجيء في عاداته اليومية (الانتقال)، والتوتر الدائم والصراخ بدون سبب ظاهر. ومما تجدر الإشارة إليه أن تأثير الحرب لم يفرّق بين أطفال قرى الجنوب والضاحية الجنوبية لبيروت، لأن التلفزيون كان ينقل كل الأحداث، فالطفل حينما كان شاهد وسمع أصوات القصف، وعانى الرعب والإنفصال المفاجيء عن أحبائه وأصدقائه. وعندما يروي الأطفال معاناتهم، يتمنون لو استطاعوا إحضار هؤلاء الأصدقاء والأحباء معهم إلى ملاذ الأمان، ومنهم من لا يريد العودة، لأن أصدقاءهم قد لاقوا حتفهم، وفقدوا أصدقاءهم أو أقرباءهم. (٩)

إن مسألة تكيف الطفل مع الأحداث الطارئة عليه والمفاجئة له والمغايرة لطبيعة الواقع لا تخضع للمعايير التقليدية التي تستخدم عادةً في قياس مسألة تكيف الطفل مع الواقع. وهذا التكيف يتم داخلياً بعملية ذكية للعقل الباطن حيث لا شعورياً يبحث الطفل عن بديل لما فقد (مثل الاستعاضة بالأم عند موت الأب، أو العكس. أو الاستعاضة عن فقدان الحنان بقضم الأظافر،...) ولعل الطريقة



الإجلاء عبر البحر.

الفردية المتواجد فيه، وأكثر الصور انطباعاً في ذهنه كانت المواقف المفاجئة والصعبة التي أثرت على نفسيته وطبعت إنتاجه بصبغتها. أما الفئة العمرية من ٨ إلى ١٠ سنوات والتي شكلت نسبة ٣٦,٧٪ فإنها بالإضافة للفئة الأولى (من عمر ٥ إلى ٧ سنوات) فهي الفئة التي لاتعرف أبعاد اللون والشكل، ولا الاحتواء بين المجموعات المتعلقة بالموضوع واكتفت من الرسوم بإظهار الفجائية المعرفية التي تلقتها أثناء الحرب وأثناء عملية الإجلاء، فجاءت المشاركة بعدد أقل من المتوقع.^(١٧)

الرسم وسيلة للتعبير عن الارتباط المكاني

لا يريد الطفل أن يدرك أسباب العلاقة بين وضعه المتردي وغير المستقر، ولم يصنف وضعه في خانة الطوارئ، بل عمد إلى المقارنة بين الواقع المتردي والذكريات التي يحملها في ذهنه إما بالمعيشة الفعلية وإما بالتواتر، والتي تحمل صورة الاستقرار والأمان، فعمد فوراً إلى استبدال الواقع الصعب بالمرحى. وبذكاء فطري رسم الأطفال الوطن بأشكال الحرب والدماء بنسبة ٢٥٪ ورسموا الوطن البديل بصفات الجمال بنسبة ٧٥٪. شكلت هذه النسبة القوة القصوى للفئة التي استقرت بالرأي على استبدال الواقع بالمأمول، كما حملت النسبة الدنيا ٢٥٪ الأخرى آثار الحرب في رسومها ولم يأت الأطفال على ذكر شجرة خضراء في وطنهم الأم. وشكلت هذه النسبة مفصلاً مهماً في التعبير عن مفهوم الاحتواء والعلاقة المتبادلة في عامل الارتباط بين الوطن والحرب، وبين الارتباط بين الوطن البديل والاستقرار بنسبة مرتفعة.

الرسم وسيلة للتعبير عن المشاعر والأحاسيس

– أطفال لبنان يلفهم الحزن: إذ شكلت نسبة الشعور بالحزن لدى الأطفال (الكآبة) نسبة تساوي ٥٨٪ وهي صفة بارزة في



إحدى الرسومات لطفل في السادسة من العمر.



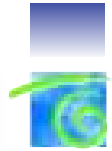
إحدى الرسومات لطفل في الثامنة من العمر.

عملية بناء معرفي حرّ وغير منطقي ليبنى عالماً آخر يحمي فيه نفسه من الواقع المرفوض. وهذا مانراه في موضوع الصور المرسومة بحرية الاختيار المطلق إن من حيث الزمان أو المكان والأبعاد.^(١٨)

فئة العمر

يتضح لنا من فئة الأعمار أن فئة العمر من ١١ إلى ١٤ اسنه كانت الأكثر إقبالاً على استخدام الرسم كوسيلة تعبيرية عما تريد قوله (٤٨,٢٪)، ولتفريغ شحنة الغضب التي رافقت تغيير النمط المعيشي للأطفال، هذا بالإضافة لانعكاس التوتر النفسي للأهل على أطفالهم نتيجة الوضع المتأزم أثناء عملية الإجلاء رغم العناية العالية النوعية التي رافقت هذه العملية، إلا أن الشعور بعدم الاستقرار والخوف من الجهول والرعب حملوه في طيات وجدانهم بعد ماعانوا ماعانوه قبل وصولهم إلى برّ الأمان.

أما إقبال الأطفال على الرسم من عمر ٥ إلى ٧ سنوات فكان بنسبة ١٥,٧٪. وهذا يدل على أن أطفال لبنان غير ملمين بالرسم، إما نتيجة خطأ تربوي - مدرسي وإما نتيجة نهج إجتماعي تقليدي مفاده أن الرسم مضيعة للوقت نتيجة لردوده المادي الضحل... والنسبة القصوى تمثلت بالفئة من ١١ إلى ١٤ اسنه إذ شكلت هذه الفئة نسبة ٤٨,٢٪، وهي الفئة التي وعت الرسم كهواية جميلة متداخلة مع الألوان نتيجة خبره معيشة: التأمل، مشاهدة التلفزيون، صور الكتاب المدرسي وهذه الفئة عملت وبشكل فردي وشخصي على صقل هذه الناحية الفنية، من خلال نشاط حر في البيت أو مع الأصدقاء، لأن الطفل في هذه المرحلة غير مقيد تماماً بنشاطات من حوله حتى في المدرسة هو يستطيع الانفلات بطريقة أو بأخرى من الروتين اليومي. لذا عبّر عن ارتباط انطباعات مشاعره الحسية (المشاهدة والرؤية) وعلاقته بالموقف



الحنين إلى البيت والطبيعة والشمس.

الذين طالهم الإختبار هم من أبناء القرى التي تضررت أثناء الحرب، والكثير منهم شاهد أو سمع عن أقارب قضاوا أو تضرروا منها. وإذا استثنينا فئة العمر من ٥ إلى ٧ سنوات الذين عبروا عن الموت بالخوف واللون الأسود والأحمر أو الخربشة غير الهادفة فإن تمزيق الورقة التي كانوا يرسمون عليها كانت الجواب. أما الأطفال من الفئة العمرية ٨ إلى ١٠ سنوات فإنهم ربطوا مفهوم الموت برسم البيت في القرية ورسموا مفهوم الحياة مرتبطاً ببيئة وطن الملجأ. أما الأطفال من عمر ١١ إلى ١٤ سنة فإنهم أكدوا في رسوماتهم معنى الحياة بأنها حيث هم ذاهبون إلى وطنهم الثاني.

مفهوم الإستقرار والتهجير

لقد جاءت نتيجة استقراء رسوم الأطفال وإحصاءاتها عن مفهوم التهجير وعدم الاستقرار ١٠٠٪. فالأطفال وعددهم ٢٨٠ طفلاً أجابوا بالتداعي النفسي الذي أجري عليهم ومن خلال رسوماتهم، فالاستقرار مطلب أساسي للطفل والتكيف الذي يتعايش معه في الأوقات غير الطبيعية (الحرب) أو (الكوارث الطبيعية) هو تعايش واعٍ ومفتعل لتمير وضعيات آنية ومختلفة عن المؤلف، وكل رسم إنما يرمز في طرفه إلى التوق لمستقر يشعر فيه بالأمان، وهذا مدرج في البنى الذهنية التي عايشها مسبقاً، وبوعي مسبق لتجربته يعتبر وضعية التهجير هذه وضعية آنية وأداة للوصول إلى ما هو أفضل من دون مناقشة الجزئيات، خصوصاً أن ما يعايشه أثناء عملية الإجلاء هو هذا المستوى الراقى إن على صعيد المستوى المعيشي وإن على مستوى الأمن. فظل ذلك واضحاً في رسومه بتمثيلات تترايط مع الشعور بالاستقرار في الوطن البديل، وإشارة مشوشة للوطن المجلى عنه. لأن التوازن النفسي الذي خلق عند الطفل يقع في أساسه كتنظيم بيولوجي ونفسي منسلخ من التربية ومن التجربة ومرتبطة باستيعاب وضعية معينة (الحرب) آملاً إلى الأفضل إذاً هو تمثيل ذهني إجرائي حمل معه مرحلة نفسية متعبة ومتأثرة وهي خاصية تنظيم

رسوماتهم خصوصاً تلك الفئة العمرية من ١١ إلى ١٤ سنة وقد ظهر مؤشر جديد لفئة العمر من ١١ إلى ١٤ سنة وهي أن نسبة مشاعر الفرح تجلت بنسبة ٢٧٪، إنما ترمز إلى الفرح المرتقب في بلد الإجلاء وليس في الوطن أو وبأحسن الظن ترمز هذه النسبة إلى الفرح الناتج عن الخلاص من أرض الحرب.

سلم القيم عند الأطفال: الحرب والسلم

يظهر واضحاً أن الفئة العمرية من ٥ إلى ٧ سنوات لا تفقه معنى الحرب، والانطباعات لديها تدور حول متطلباتها الحياتية من أكل وتوفير مساحات لنشاطاتها العضلية (اللعب) وبالدرجة الأولى الأمان وهي تربط بين صفة الحرب والخوف والدمار والدم، وتربطها بأصوات القذائف والرصاص ووجودها في الوطن. كما أن الطفل في هذه المرحلة العمرية لا يفقه معنى السلام ٣، ٨٨٪ إلا من خلال الاكتفاء.

أما الفئة العمرية من ١١ إلى ١٤ سنة فإن نسبة ١٠٠٪ منها تعرف معنيي الحرب والسلم وتربط الحرب بالشر وتربط السلم بالخير. فالمصفوفات التقييمية (matrices) عند الأطفال ناتجة عن مصدرين على الأقل: الأمن والاكتفاء (١٢)، وهذا التصنيف يتطلب مقارنة بين معطين حسيين، اللذين توفر أعلى شكل إلغاء للواقع المؤلم بنظيره المستقر والجميل والآمن. فمفهوم الحرب والسلم عند الأطفال كونا تصوراً عاماً لخبرة مؤثرة استخرج الطفل منها قانوناً صادر من خلاله مفهوم الوطن لصالح الأمان والاكتفاء والاستقرار، فالبنية العامة لمفهوم السلم هي المفهوم العلائقي المتبادل بين حاجاته والواقع، والسلوك هو السلوك المعرفي المتبادل بين الطفل والبيئة، والنشاط الذهني هو التفاعل الوظيفي بين تراكمات الذاكرة والمؤثرات الخارجية المؤثرة على هذا السلوك. (١٣)

مفهوم الموت والحياة

إن هذا المفهوم عام ومتحرك، وخصوصاً أن معظم الأطفال



الحنين إلى المدرسة والوطن.

أويكون بالتحدي اللفظي أو بالتعويض التمثهري (Refoulement) ويعود هذا إلى التوازن النفسي لدى الطفل الناتج عن التكوين النفسي التراكمي مع المحدثات الجديدة. هذا التوازن هو الوسيط لتبادل التفاعل بين البنى الذهنية الداخلية وبين البيئة المحيطة عبر تتابع عمليتي الاستيعاب والملاءمة.

بناءً على ماسبق من شرح لهذه الناحية وبناءً على النتائج الإحصائية لتحليل رسوم فإن الشريحة العمرية من عمر ٥ إلى ١٤ سنة رفضت تواجدها في ظروف خطيرة وطائرة ومهينة بنسبة ١٠٠٪ وكانت تتطلع إلى عملية الإجماء على أنها البداية للوصول إلى واقع مريح.

رفض الحرب

الحرب عند الأطفال، الخوف وعدم الاستقرار وعدم الاكتفاء وكل المعاني السلبية الضاغطة للحياة. النتائج الإحصائية لتحليل جاءت ناطقة ومشابهة لدرجة التكيف عند الطفل مع الواقع الرفض له، لذا فإن نسبة ١٠٠٪ من الأطفال رفضوا فكرة الحرب من دون أن يذكروا الأسباب، ففكرة الحرب بحد ذاتها مرفوضة في مفهوم الطفل.

الحالة النفسية للطفل أثناء الإجماء

جاءت النتيجة الإجمالية لفئة العمر من ٥ إلى ١٤ سنة وبنسبة ٧٥٪ راجحة لجهة الأمل في الشعور بالاستقرار في بلد الإجماء، ورفض العودة إلى الوطن الذي لا يحمل في ذاكرته عنه سوى آثار الحرب، أما النسبة المتبقية وهي ٢٥٪ فكانوا يعانون من أثر الصدمة ولا يودون حتى الحديث عن المكان الذي تخلوا عنه.



هكذا رسم الهروب مع والدته.

ثقافة الألوان عند الأطفال

الطفل اللبناني أمي في معرفة الألوان، معظم الأطفال من عمره إلى ١٠ سنوات لا يعرفون الهدف من الألوان، بمعنى أن الطفل لا يملك ثقافة الألوان والفن حتى أن بعض الأطفال لم يمارس الرسم في ما سبق. ومع ذلك ربط الطفل الألوان بالحرب التي ما وعى غيرها... أما فئة العمر من ١١ إلى ١٤ سنة فإن الأطفال استخدموا الألوان بأهدافها (الأخضر=شجرة والأحمر=الدم والحرب، ولكن أحداً من الأطفال لم يرسم قريته أو بيته أو وطنه.

الوقائع التي يخترنها الطفل من العالم الواقعي من حوله بحيث يمكن استعمالها بشكل إنتقائي لتقبل الواقع الجديد وتكمن خطورة هذه الحالة أنها:

- ١- يمكن كتبها مرحلياً مع حفظ مؤثراتها السلبية مستقبلاً.
- ٢- يمكن عكس هذه المؤثرات بتمظهر مختلف، وخطورة هذه المرحلة تكمن بأنها تظهر بشخصية متخفية... (شخصية الطفل الهاديء أو اللامبالي).

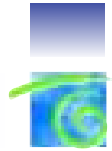
مفهوم الوطن

عبرت نتائج الإحصاءات والتحليلات بأن مفهوم الوطن عند الأطفال لفئة العمر من ٥ إلى ٧ سنوات غير واضح، لأن الوطن في مفهوم الطفل هو الأمان والبيت والمدرسة وهذا ما لم يتوافر له الآ في ما ندر وبشروط قاسية، المسافة البعيدة التي تفصل المدرسة عن البيت، وسوء وسائل الانتقال، وعدم توافر وسائل التعليم، وسوء العلاقة مع المدرسين الذين تركوا انطباع الخوف لدى التلامذة، كل هذا ارتبط بمفهوم الوطن الذي يسعى الطفل الجمل إلى التخلص منه بالحلم بالوطن الجديد.

بالنسبة لفئة العمر من ٨ إلى ١٠ سنوات فإن نسبة ١٠٧٪ عبّر عن معنى الوطن بالألم وعدم رسمه أو يرسمه بشكل قائم. بالإضافة إلى أن نسبة ١٥٧٪ من هذه الشريحة لا يدرك معنى الوطن أي أكثر من الثلاثين. أما فئة العمر من ١١ إلى ١٤ سنة فلا يوجد علاقة تكوينية بين الموجود والضرورة، فالمنعنى المنطقي لمفهوم الوطن في البناء الذهني للطفل ضاع بين بنية الفرد الذهنية الداخلية ومستوى هذه البنية في التجربة على أرض الواقع من خلال المعاناة الشخصية.

درجة تكيف الطفل مع الواقع

تكيف الطفل مع الواقع هي عملية تنظيم داخلية يلعب فيها العقل الدور البيولوجي، ويتمظهر طوال الحياة في شتى تصرفاته وهو عامل التنظيم بين التطور والبناء الفكري الموصل إلى التوازن النفسي الذي يعطي الطفل القدرة على المواجهة والتحدي تجاه الطوارئ والمفاجآت الظرفية، أما من ناحية الرد عليها فهو إما أن يكون مباشراً بتصرف مثلي ومشابه (الضرب يقابل بالضرب المماثل)



الاسقاط النفسي وعملية الاستبدال للمفاهيم

استبدال مفهوم الوطن الأول بالوطن الثاني وعملية تفضيل الوطن البديل وقد سمّي وأشير إليه بأكثر من مكان في الرسم على أنه الوطن الحلم والمنشود، وبنتيجة تساوي ٧٣,٥٪ رسم الأطفال البيت الأميركي أو البيت الأوروبي على أنه الوطن وهو عامل الارتباط بين الواقع والحين إلى العودة إلى عالم الطفولة عالمه الأساسي، فجاء الرسم عملية استدخال نشاط إجرائي انطلاقاً من معطيات الواقع وتحويله إلى بنية ذهنية ومخزون مستقبلي يبني عليه نشاطه.



كندا الخضراء... هكذا رسمها الأطفال.

خلاصة الدراسة

١- إن عالم الطفل اللبناني فيه الكثير من الخيال والتناقضات، هو نموذج هشّ وفريد، وهذا مانقرأه في نتائج الإحصاءات التي تؤشر إلى التغيير السريع الذي يصل إلى درجة الإلغاء للوطن واستبداله بالوطن الملجأ.

٢- إن ذاكرة الطفل اللبناني وإن بدت في تمظهرها الأساسي تبحث عن الحاجات الأساسية: الأمن الاستقرار، ألا أنها في بحث دائم عن المستوى الإنساني لجوانب العلاقات الطبيعية والواقعية والمنطقية، التي يبني الطفل من خلالها البعد العلائقي الاجتماعي لأن بنية الطفل الذهنية لا يمكن فصلها عن بنيته الاجتماعية والبيئية، وإلا تكونت لديه حالة مرضية أقرب إلى الفصام.

٣- نخلص من هذه الدراسة إلى تصور عام للطفل اللبناني، فهو الطفل المرتبط ارتباطاً وثيقاً وجاداً بالأنا وبالآخر وفق أصول منطقية ألغت معاني لم يكن لها أساس بنيوي قوي (الوطن) بعملية تبادلية جدلية بينما هو مرفوض (الحرب) وبين ما هو آمن (وطن اللجوء).

٤- من الملاحظ أن أكثر المقبلين على الرسم هم فئة العمر من ١٠ إلى ١٤ سنة مع العلم أن القاعدة تفترض أن يكون المقبلين على الرسم هم الأصغر سناً وهذا مؤشر إلى أن أطفال لبنان هم أطفال كبار تعدوا يفاعاة السن، أما من هم من فئة العمر الأقل من ١٠ إلى ١٤ سنة فهم بحالة طفولية مشتتة وحادة لم تسمح لهم بالتعبير عن مشاعرهم حتى بالرسم.

٥- إن مهمتنا التربوية صعبة وحرجة، نحن بحاجة لاستراتيجية محكمة لإعادة خلق معانٍ وطنية طعمها السلام ورائحتها تراب الوطن وشمسها العدالة، واسمها لبنان.

ملحق : استبيان تفرغ رسوم الأطفال أثناء عملية الإجماء

- ١- سلّم الأعمار.
- ٢- سلّم تنوع الرسوم : الحرب، السلم، الوطن.
- ٣- الرسم كوسيلة لتفريغ شحنات الكبت، أو كوسيلة سهلة للتعبير.
- ٤- قدرة الطفل على إدراك مفهومي الحرب والسلم.
- ٥- قدرة الطفل على إدراك مفهومي الموت والحياة.
- ٦- قدرة الطفل على استيعاب مفهوم الانتقال والإجماء.
- ٧- إدراك الطفل لمفهوم الوطن.
- ٨- درجة تكيف الطفل مع الواقع.
- ٩- قوّة درجة رفض الحرب عند الأطفال.
- ١٠- قوّة درجة تعلق الطفل بمعنى الوطن.
- ١١- مدى حاجة الطفل إلى الاستقرار.
- ١٢- كيفية استخدام الطفل للألوان، هادفة، غير هادفة.
- ١٣- مؤشرات إسقاطات الأطفال ■

هوامش:

- ١- شجرة الجماليا Géranium
- ٢- حمامات السّتوتة Colombes
- ٣- ترجمة عن قصة Antoine de Saint- Exupéry, P: 20, Evacuation
- ٤- الإجماء: Evacuation
- ٥- يياجيه، النمو النفسي للطفل، ترجمة غسان بعقون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٣.
- ٦- الرمز: Indicateur
- ٧- الثابت: Conservation
- ٨- إدراك الكلي عند الطفل، كمال دسوقي، دار المعارف، مصر
- ٩- مشروع العلاج النفسي لأولاد الجنوب، اليونيسيف
- ١٠- تطور الطفل ص ٦٧
- ١١- La Formation Du Symbole chez l'Enfant, (Piaget) P: 310, 1971, Académique Presse
- ١٢- فيرنون، ضرورة المنطق وأهميته عند الطفل، دار المعارف، مصر
- ١٣- يياجيه، تطور الطفل